

الاتصال الوثائقي بالأندلس وقيمة الفهارس

د.ة. متاجر صورىة

جامعة سىدى بلعباس

Abstract:

Scholars interested in Andalusia art authentication great attention, Venbg the jurists for, Volfoa where multiple books.

The authors took Documentation Andalusian character in this phase mixing between documentation and doctrine.

The altitude of the documentation as well as knowledge of Fiqh of basic science that compete with the scholars of Andalusia and has the Maliki school, and the first of a thousand in this science from the Andalusian is the world of Andalusia Abdul Malik bin Habib (d. 238 AH), has contributed to this science synthesizes and instruction.

Keywords:

Documentation - Information - Libraries - Sciences-
Scientific activity

اهتم علماء الأندلس بفن التوثيق اهتماما كبيرا، فنبغ فيه فقهاء
أجلة، فألفوا فيه مؤلفات متعددة الأشكال⁽¹⁾. وقد أخذت مؤلفات التوثيق
الأندلسية في هذا الطور طابع المزج بين التوثيق وفقهه ويعتبر علو التوثيق إلى
جانب علم الفقه من العلوم الأساسية التي تنافس علمها فقهاء الأندلس وقام
عليه المذهب المالكي، وأول من ألف في هذا العلم من الأندلسيين هو عالم
الأندلس عبد الملك بن حبيب (ت 238هـ)، وقد ساهم في هذا العلم تأليفا
وتدريسا.

غير أنه في العصر الحديث استحدث مفهوم آخر للتوثيق الذي يرتبط بالمكتبات وخدماتها، فتطلق كلمة "توثيق" بمعنى استخدام المعلومات المنشورة. وأول من استخدم مصطلح التوثيق، هما: "أوليت" و"لافونتين" في أواخر القرن التاسع عشر بهدف إصدار البيبليوغرافيا العالمية⁽²⁾. إن استعمال مصطلح التوثيق بهذا المفهوم، سبب خلطاً في أذهان الناس بينه وبين المفهوم الشائع لكلمة "توثيق" وقد أدى هذا الخلط إلى معارضة استخدام هذا المصطلح من بعض المشتغلين بعلوم المكتبات، أما المتخصصون في العلوم الإنسانية فيريدون استخدام "التوثيق" على المعنى التاريخي المرتبط بالوثائق. وقد حمل هذا التشويش - الذي سببه إطلاق هذا المصطلح - المشاركين في مؤتمر تدريب المتخصصين في علوم "المعلومات" المنعقد في معهد جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1962 على إصدار توصية بوجوب إلغاء كلمة "توثيق" و"موثق" وإدخال كلمة "معلومات مكانها"⁽³⁾.

ومن مرادفات علم الوثائق والتوثيق عند علماء الفقه الإسلامي، علم الشروط وهو علم يبحث فيه عن كيفية سرد الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات، ويبحث في كيفية تدوين الأحكام الشرعية⁽⁴⁾. كما يطلق لفظ وثيقة على أي نص مكتوب باليد على الورق (مستند)، أو منقوش على الحجر والفخار، وعلى الرسومات، وهو يختلف عن تعريف الدبلوماسية التي هي عبارة عن مستند مكتوب وفقاً لصياغة معينة، ويشمل على فعل قانوني، واستنتاجاً بأن المعرفة لا تحصل إلا من خلال المعلومات وبأنها وسيط لها.

لابد من الإشارة إلى أن مصطلح المعلومات ظهر تاريخياً وزمناً امتداداً لمصطلح التوثيق الذي هو عبارة عن تداول المعلومات. فالتوثيق هو فن تجميع أشكال سجلات النشاط الفكري وتصنيفها للاستفادة منها في قنوات الاتصال الفكري والوثائقي، كما أنه عبارة عن تسجيل للمعرفة البشرية ومصادر

المعلومات و تنظيمها بطريقة تكفل سرعة الوصول إليها. فالتوثيق هو تثبيت وإحياء للمعلومات، و هو وعاء للمعرفة وحافظ لذاكرة التاريخ و الأمة والحضارة. ومن هنا فإن توثيق المعلومة في إطار الاتصال الوثائقي من خلال كتب التراجم والطبقات الأندلسية هي المقصودة في هذا العمل وتحديد العلاقة بين الإنتاج الفكري التي يحمل تراث الكتب والعلماء في هذه العملية. وعلى إثر هذا كله فإن الاتصال الوثائقي يتضمن التحليل والتكشيف والفهرسة والاستخلاص للنتاج الفكري. وهي على الشكل التالي:

- التوثيق هو فن تجميع أشكال سجلات النشاط الفكري وتصنيفه.
- تسجيل نشاط المعرفة البشرية ومصادر المعلومات وتنظيمها وبها بمختلف الطرق كالرحلة والتعليم والإجازة.
- علم تجميع مصادر المعلومات المدونة.
- اختيار المعلومات وتصنيفها.

أما الموثقون في الأندلس، فمنهم من كان يتولى توثيق الأمور السلطانية، ومنهم من تولى التوثيق لعامة الناس، وكانوا على إطلاع بالأحكام والمؤلفات المتخصصة لهذا الفن، إضافة إلى حسن الخط، ولكنهم تحت إشراف القضاة كما تولوا التوثيق في المنازل والمساجد، ومنهم من جمع إلى التوثيق بعض الخطط كالتوثيق والشورى، أو التوثيق والشرطة أو التوثيق والتدريس أو التوثيق والتجارة⁽⁵⁾.

الاتصال الوثائقي في الأندلس:

إن ظاهرة استكمال كتاب سابق من كتب التراجم مؤشراً على أن هذا النوع من التأليف قد امتد لعدة قرون، وظهوره لأول مرة في الأندلس والمغرب الإسلامي له أهميته ودلالته الثقافية، فعندما ألف ابن بشكوال كتاب الصلة كان هناك قلق في الحياة الفكرية في الأندلس تمثل بالثورة على التبعية المشرق الإسلامي، واعتبار الأندلس مجرد مقلد لتراث المشاركة، أو صدى لما يصدر من الشرق من أعمال فكرية وفنية. وأبرز من

يمثلون هذه الثورة ثلاثة من أكبر مفكري الأنءلس ومؤرخهم وهم: ابن حزم (ت 456 هـ/1064م)، وابن حيان (ت 469 هـ/1076م) وابن بسام (ت 542 هـ/1147م)

لقد ألف ابن حزم رسالة في فضل أهل الأنءلس يدافع فيها عن الأنءلسيين، ويوضح أن إسهاماتهم في الحضارة والثقافة الإسلامية إسهامات أصيلة⁽⁶⁾. أما ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، فيذكر كبار مؤرخي الأنءلس، وابن حيان يثور على التبعية الثقافية المشرقية، ثم يدون تراجم لمعاصريه من الأدباء الأنءلسيين. ويبدو أن أسلوب " التتمات " في تدوين تراجم العلماء حتى عصر المؤلف، كان القصد منه عند ابن بشكوال وابن الأبار وابن عبد الملك هو إلقاء الضوء على أصالة العلماء الأنءلسيين والمغاربة معا، وهذا هو الذي يفسر ظهور هذا النوع من معاجم التراجم في المغرب الإسلامي. ويلاحظ على فئة كتب التراجم أمران: أولهما أنها لم تظهر بوضوح إلا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وثانئما أن أقدمها، طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب التميمي (ت: 333 هـ/954م).

يرجع هذا التغيير إلى استقرار الجاليات الأنءلسية ببلاد المغرب عندما سقطت حواضر الأنءلس، وحاولت هذه الجالية بناء ذاكرة جماعية مشتركة بين الوطن القديم والجديد على منوال ما فعله أصحاب التواريخ المحلية والأسرية⁽⁷⁾. وهاتان الملاحظتان توضحان بجلاء أن المعاجم الخاصة بتراجم الأعلام، لم تظهر إلا مع بداية ضعف الخلافة والتحول إلى مراكز أخرى كان لها ثقل سياسي في الدولة الإسلامية.

القيمة العلمية للفهارس والتراجم:

الجدير بالملاحظة في مجال الارتصال الوثائقي بالأنءلس، هو ارتباطها

بالبرامج

والفهارس، وهي تأليف تحتوي على مادة بيوغرافية وبيبليوغرافية، انتشرت على الخصوص ببلاد الأندلس. وتنبت فهارس وبرامج الشيوخ عن سعة وكثرة مؤلفات علماء الإسلام، وتكشف عن أبواب شتى للمعرفة الإنسانية، كما تعتبر ملونات تضم أسماء الشيوخ ومؤلفاتهم، وقد اهتمت كتب الفهارس والبرامج بمختلف طبقات العلماء، وهذا رغبة منهم في الالتحاق بالسند والإجازة والعناية بالرواية. ظهرت مصنفات الفهارس والتراجم في حياة الأندلس الثقافية منذ المراحل الأولى، وتواصل الاهتمام بها حتى أواخر عهد الأندلس بالإسلام⁽⁸⁾.

تعرف تجربة كتابة تراجم العلماء في الأندلس حضوراً مميزاً ضمن عمليات الكتابة التاريخية الأندلسية، أولاً، وضمن بقية الثقافات التي عرفها حركة التأليف في بيئة المغرب الإسلامي. ثانياً؛ فقد هياً هذا أن يكون عمل هذه التجربة من بين الأصناف الثقافية المميزة التي تحفظ للأندلس حضورها النوعي ضمن التراث الثقافي الذي أنتجه الوجود العربي الإسلامي في مختلف مراحلها التاريخية. تتميز أعمال هذه التجربة بمادتها التي ترتبط ببيئة الأندلس وما يتبعها من أحداث ووقائع، وتنصرف التراجم فيها إلى أسماء علمية درجت في هذه البيئة الأندلسية أو وفدت عليها من بيئات أخرى، فتعرف بنشاطها وتعرض أحوالها وموالدها ووفياتها وطبقات مشايخها، وتثير ما يتعلق بها من هاجس العلم وطلبه، وتحديد حوافز التحصيل والرحلة إلى أهله، وذكر إمكانات الكتابة عنه والتأليف في علومه وموارده، فمنها تستمد أخبار الأندلس وأحوال رجالها، ومنها يتعرف على حركة الثقافية والعلم التي شهدتها البيئة الأندلسية خلال مراحلها الإسلامية.

تفرد التراجم بمناهجها الخاصة في العرض والترتيب، فتستوعب بهذا ما يعرف في مناهج الترتيب عند كتاب الرجال مشرقاً ومغرباً، إذ يكون

الترتيب على طبقات الحروف، أو طبقات الأسماء، أو الوفيات، أو طبقات أصناف الرجال علما وجاها وشهرة، أو طبقات الانتماء إلى مكان معين أو طبقات البلديين والغرباء، ويكفي أن يثار منهج ترتيب تراجم الفهارس، التي فاضت بالأسانيد التي توثق المرويات، ليكون نموذجا أندلسيا صريحا في هذا المجال، وذلك لتمييزه عن بقية نماذج كتب الرجال والطبقات مشرقا ومغربا⁽⁹⁾. إن القارئ لكتب تراجم الأندلسيين، مما هو متداول بين أيدي الباحثين سيلاحظ منذ أول اطلاعه على مواد هذه الكتب؛ أنها تمثل خصوصية بيئة مميزة؛ لأنها تحتفظ بالمعالم التي تجعل الأندلس حاضرا بأمزجة رجاله، وطبيعة علمائه، وظروف الأحوال والأخبار التي تكتنف حياة أولئك الرجال، وأنشطة العلماء منهم في الحل والترحال.

وتسعى الترجمة الأنموذجية في كتب تراجم الأندلس إلى الحديث عن

الثوابت التالية:

1. الاسم الكامل بكنيته واسمه ولقبه وانتمائه أصلا، ومكانا.
2. عرض مشيخة المترجم.
3. عرض الآخذين عنه.
4. الإلحاح في عرض رحلة المترجم به.
5. ذكر أحوال المترجم به وأخباره ونشاطه.
6. تسمية لائحة المؤلفات التي أنتجها المترجم به.
7. ذكر منتخبات من أعماله الأدبية.
8. ختم الترجمة بحدث تاريخي: مولد المترجم به ووفاته، ومدفنه.

نماذج من كتب الفهارس والبرامج:

سنأخذ ثلاثة نماذج من كتب الفهارس والتراجم، أملين ألا يكون اعتمادنا على هذا العدد فقط مدعاة للقول بأننا أُلغينا من حساباتنا الحديث

عن البرامج والفهارس الأخرى. ولعل اختيارنا هذا العدد، ما يدل على أنها كتب مختارة، تتنوع في التنظيم والمحتوى، وتتفاوت في المستوى والترتيب والتأطير، والتثبت من حجم المعرفة العربية الأندلسية في هذا المجال. فالفهارس والبرامج لها فوائد عدة منها: نافذة علمية تساعد على خدمة العلم ونشره وجمع شتاته وتكشف عن الأجواء العلمية وزخم المعرفة، وتعمل على رصد مراكز التعليم وتكشف عن أنواع العلوم السائدة آنذاك، كما أنها تعد وثيقة مصدرية ثرية بالمعلومات، وتعد عنصر تقارب وتواصل علمي بين المراكز الإسلامية في مجال الاتصال الثقافي، كما ترصد لنا الروافد الثقافية المكونة للعلماء، والحياة العقلية والعلمية والسياسية السائدة في الأندلس.

تعتبر فهارس وبرامج الأندلسيين سجلا يكشف عن المنابع الثقافية والمصادر العلمية التي ارتوى منها العالم والأصول التي اعتمد عليها، وأهميتها تتبين في النقاط التالية:

1. تمدنا بصورة صادقة عن الحركة العلمية والحياة الثقافية في العصر الذي دونت فيه وتطورها.
 2. ترسم لنا ملامح النشاط الذي يقوم به الطلبة وطرق تلقيهم العلم وأسلوب التدريس وطرقه.
 3. المساعدة على معرفة الكتب المتداولة وإحصائها في مختلف الفنون والعلوم والنشاط الفكري في شتى الموضوعات.
 4. توضح لنا العلاقات وطرق الاتصال العلمي بين الطلاب وشيوخهم.
 5. تكشف لنا عن الكتب المفضلة عند الدارسين.
 6. تمدنا بطائفة من البيانات الببليوغرافية المتصلة بحياة الكتب.
- يتأكد لنا أن للأندلسيين خصوصية في مجال البرامج والفهارس، يدلنا على ذلك ما نراه من اهتمام العلماء في تأليفها وتصنيفها، وعكوفهم على

الاشتغال بتراجم علمائها، لأنهم تمكنوا من الجمع بين المكتبتين المشرقية والأندلسية. وتعتبر كتب الفهارس والمعاجم وثائق مهمة للغاية، ومصادر تتميز بعلو الإسناد وتعنى بضبط سلاسل العلماء، وتوفر للباحثين ولعلماء الحديث بخاصة المادة العلمية التي تساعد على رسم خطوط حركة التأليف والتوثيق عند الأندلسيين. وتحتوي هذه الكتب على سجلات وأوراق، قام المؤلفون بتسجيلها في كتبهم. وتكمن أهمية الفهارس أيضا التي أخذناها كنماذج للدراسة مثل فهرسة ابن عطية وفهرسة القاضي عياض وابن خير الإشبيلي في أنها نموذج أمثل لحركة الفهارس والبرامج في بلاد الأندلس خلال القرن السادس الهجري.

أ - فهرس ابن عطية:

صاحب هذا الفهرس هو ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربي ولد في غرناطة سنة 481 هـ-1087م. و توفي بلورقة سنة 546هـ/1152م، وصفه ابن بشكوال بقوله: "و كان حافظا للحديث، وطرقه، وعلله عارفا بأسماء رجاله و نقلته... و كان أديبا، شاعرا، لغويا" و وصفه الضبي بقوله: "فقيه زاهد محدث عالم"⁽¹⁰⁾. ويعتبر فهرسه من الكتب الأولى التي تطلعننا على حال الفهارس وبرامج الشيوخ.

تضمنت تراجمه لـ 30 شيخا، أخذ منهم ابن عطية، وترجم لهم، وحاول أن يطلعنا على أسلوب طلب الشيوخ للإجازة، وعلى طبيعة الكتب التي كانت سائدة في عصره، ولاسيما تلك التي رواها عنهم سمعا أو قراءة، أو مناولة أو إجازة وكان ابن عطية حريصا على ذكر معلومات أفادت الترجمة وأعطتها امتدادا اجتماعيا وثقافيا وعلميا. وعلى الرغم من أن مجموع الكتب التي رواها ابن عطية لا يتجاوز عددها (120) مائة وعشرين كتابا ذكر فيها سند بعض الكتب المروية، واحتوت أسماء المحدثين والفقهاء والعلماء

الأندلسيين إبان القرن السادس الهجري. يطلعنا هذا الفهرس، الذي يعتبر من الفهارس المكتملة على أسلوب تلقي العلم، وطريقة الحصول على المعلومات، ونوعية الكتب التي كانت منتشرة في الأندلس، على أن أكثر ما يستري النظر لمن يتتبع خريطة الكتب، وتبادل العلم والمعلومات في الأندلس انتشار الفهارس، والاعتراف بأهميتها في مجال التعليم، واحتفل فهرس ابن عطية بذكر فهارس علماء الأندلس المتداولة إبان القرن الخامس الهجري، مثل فهرسة أبي عمر الطلمنكي، وفهرسة ابن خليفة الأنصاري المالقي، وفهرسة محمد بن عتاب. وهي أشهر فهارس علماء و شيوخ الأندلس في القرن الخامس والسادس الهجريين. توفي ابن عطية سنة 541 هـ/1145م بمدينة لورقة⁽¹¹⁾.

ومهما يكن من أمر هذا الفهرس، فإنه يشكل حلقة من حلقات الاتصال العلمي التي كان العلماء يتطلعون إلى مباشرته باعتباره أحد أركان تدوين الفهارس والبرامج. كما يعتبر من أهم الكتب التي احتوت على معلومات تفيدنا في معرفة الكتب ونوعيتها وأسلوب تلقي العلم وعلاقة الطالب بشيوخه، وطرق التدريس وأسلوبه في المحافل التعليمية أو المدن الأندلسية. وقد احتفت بذكر عدد لا يستهان به من أسماء الرواة والمحدثين والقضاة والفقهاء والعلماء، ممن ازدان بهم القرنان الخامس والسادس الهجريان، وما روه و ما أنتجوه. كما شارك ابن عطية في وضع أصول علم البرامج والفهارس، ورسخ مفهوم طلب الإجازة والسماع والقراءة، ويشكل هذا الفهرس حلقة من حلقات الاتصال العلمي والوثائقي وأحد أركان تدوين الفهارس والبرامج والمشخات، كما يعتبر من أهم الكتب التي احتوت على معلومات تفيدنا في معرفة حركية الكتب ونوعيتها، وطرق التدريس و التعليم في المدن الأندلسية، وأسماء الشيوخ العلماء⁽¹²⁾.

ب- الغنية: فهرسة شيوخ القاضي عياض:

ولد أبو الفضل عياض بن محمد اليحصبي، بمدينة بسبته سنة 476 هـ/1083م، ورحل إلى الأندلس في سنة 507 هـ/1113م، وتوفي بمراكش سنة 544 هـ/1149م سعى فهرسته بالغنية، التي تعتبر وثيقة هامة تبين لنا عن طرق الاتصال الثقافي والفكري، وحركة التبادل العلمي بين المغرب والمشرق، ولعل أول ما يلاحظه القارئ لفهرسته العدد الضخم للكتب التي رواها، حتى صار مدار الرواية في الأندلس، إذ ضمت الغنية (211) كتابا، و(98) ترجمة لشيوخه. ويعتبر كتاب الغنية وثيقة مهمة من وثائق القرن السادس الهجري الفكرية، حيث يظهر حركات الصلات الثقافية بين العدو والأندلس، و مواقع هذه الحركة و مواضعها الناشطة، و دور سبته الثقافي و الفكري إبان القرنين الخامس والسادس الهجريين، و مدى أثرها و تأثيرها في الحركة الثقافية بين المغرب والأندلس. ويتضمن كتاب الغنية ضوابط موثقة السند و الرواية، وتظهر فيه طائفة من المصادر التي استقى منها القاضي عياض ثقافته التي أخذها قراءة و رواية و سماعا.⁽¹³⁾

ويبدو من خلال دراسة الغنية، أن القاضي عياض قد جمع بين الطريقتين. فهو يستشهد بأقوال العلماء. وفي الوقت ذاته يستشهد بالبرامج والفهارس، والدليل على ذلك ما خصصه لهذه الفهارس من مساحة في نهاية كتابه حيث بلغ عددها (33) ثلاثة وثلاثين فهرسة⁽¹⁴⁾.

ج - فهرسة ابن خير الإشبيلي:

هو أبو بكر محمد بن خير بن عمر الأموي الإشبيلي (502-575 هـ/1108-1179م) ولد في إشبيلية وتوفي بقرطبة، يعتبر كتابه (فهرسة ما رواه عن شيوخه) من أغني الكتب التي تمسح مقتنيات المكتبة الأندلسية، بحيث أراد أن يحول اتجاه الفهارس والبرامج من الاهتمام بالشيخ والترجمة له، إلى

الاهتمام بالموضوع، وجمع المادة العلمية في موضع واحد، فوضع ابن خير أسس تبليغ العلم ونشره وتعليمه من خلال الحمل والرواية والتأدية والتبليغ، ومعرفة طرق الرواية وسماع الراوي وعرضه للكتاب، وسماع الشيخ، ثم مناولة الشيخ، فإجازة الشيخ⁽¹⁵⁾.

إن فكرة تقسيم الموضوعات لدى ابن خير، مكنته من تجاوز تصنيف ابن النديم في (الفهرست)، حيث أضاف إلى تصنيفه الموضوعي: التصنيف المكاني والزمني، ووصل بين الحاضر والماضي بالإسناد، وهو ما لم يتطرق إليه ابن النديم، واعتبر العمود الفقري لكل معرفة صدرت عن الأندلسيين⁽¹⁶⁾. ولقد تمكن ابن خير لأول مرة في القرن السادس الهجري أن يجمع في مؤلف واحد ثقافة المشرق وثقافة الأندلس، مبينا سبل الاتصال بين المشرق والأندلس من خلال خطين متوازيين: الاتجاه الأول ينحاز نحو المشرق وكانت قاعدته الرحلة، والاتجاه الثاني ينحاز نحو الأندلس، وكانت قاعدته وفود العلماء إلى الأندلس وجلب الكتب المشرقية.

وتشير الإحصائيات التي تضمنها الكتاب⁽¹⁷⁾، أن فهرسته مكتبة قائمة بذاتها، وجاءت موصولة للسلسلة، قدمها له علماء نقلوها بالتواتر إلى زمانه وذكرت فهرسته على ما يزيد عن 90 فهرسا، و90 ديوان شعر وهكذا فقد جمع ابن خير بين ثقافة المشرق وثقافة المغرب والأندلس في سفر واحد بصورة متوازنة، لذلك اعتبر كتابه قاعدة معلومات حول طبيعة التأليف العربي الإسلامي واتجاهاته.

اختار ابن الخير لعرض مروياته ترتيب المصنفات على حسب العلوم التي تنتمي إليها. ومع ذلك، فقد ذكر ابن خير عددا لا يستهان به من كتب التاريخ الأندلسي والمشرقي، وكتب الأنساب والمغازي والسير، كما ذكر عددا من كتب اللغة المؤلفة في الأندلس، والجدول التالي يوضح ذلك:

ءءول رقم (1): إءصاء الكتب عئء ابن آئر:

ابن الآئر الإشبيلي	المصنفات حسب التخصصات
131	القرآن وعلومه
194	الحءيآ وعلومه
132	التاريخ
36	الفقه وأصوله
4	التغذية
10	الحساب
4	الرؤيا
197	العقائء
507	اللغة والأءب
115	الفهارس والمعاجم
1330	المجموع

كان الءءف من كتب البرامج والفهارس نقء الرجال ورصد آحركاتهم العلمية وتعيين مقدار آحصيلهم ورسم أسلوب ضبطهم، وتسجيل ما قرأوه وما سمعوه وما كتبوه وءونوه واقتنوه من كتب العلم، والءفاظ على نقاء الضبط والرواية في الأنءلس، والصيغة التي غلبت على عمل ابن الآئر الإشبيلي كانت الصيغة التءءاءية أو الإءصائية، وهذا من آلال الاءتمام بالءقة العلمية في آءءيء المعلومات.

لا شك في أن ابن آئر يربط في مءءمته بين أكثر من قضية تعليمية متآذا أسلوبا لتوصيل المعلومات والأفكار، فالءءل والرواية والتأءية والتبليغ

والسمع والإجازة، جميعها وسائل يعتمد بعضها على بعضها في الاتصال المباشر، وهي تشكل وسيلة للنشر والإذاعة للأفكار. وقد تضمنت فهرسة ابن الخير (180) طريقة اتصال في (102) مؤلف، كما دون ابن الخير وسيلة التحمل بـ 117 ضمن 180 طريقة اتصال، واستعمل المصطلحات التالية للتحمل: حدثنا - سمعنا - أخبرنا - أنبأنا. وتم إحصاء 34 مرة: إجازة، 20 مرة: قراءة، 9 مرات: مناقلة⁽¹⁸⁾.

رتب ابن خير كتابه الفهرسة على أساس الموضوعات أو العلوم، وتحت كل موضوع أو علم أدرجت أسماء الكتب التي ألفت فيه وأسماء موضوعاتها دون ترتيب محدد، والموضوعات الآتية هي التي تم ترتيب الكتاب على أساسها.

أعلام القرآن	السير والأنساب
الموطآت	الفقه
كتب الحديث	أصول الدين
كتب التاريخ	الفرائض
التراجم	الأدب واللغات والأشعار

ويبين الجدول التالي التوزيع الموضوعي للمصنفات التي يذكرها ابن خير وعددها في كل موضوع:

جدول (رقم 2) التوزيع الموضوعي للمصنفات عند ابن الخير:

رقم المصنفات	الموضوع	عدد الكتب
1	علوم القرآن	105
2	الموطآت	17
3	المصنفات المسندة	21
4	المصنفات المتضمنة للسنن	33
5	سائر كتب الحديث	105

6	علل الحديث ومعرفة الرجال	85
7	السير والأنساب	18
8	الفقه على مذهب الإمام مالك	36
9	أصول الفقه	22
10	كتب الأشربة	6
11	الفرائض	11
12	الرؤيا	5
13	الزهد والرقائق	45
14	تأليف أبي بك بن أبي الدنيا	9
15	تأليف أبي سعيد بن الأعرابي	3
16	تأليف أبي بكر الأجري	23
17	تأليف ابن ذر عن المهروي	74
18	اللغات والآداب	32
19	تأليف أبي علي بن عبد الغفار	6
20	الآداب واللغات	202
21	الشعر	42
22	ما ذكره أبو مروان بن سراج	20
23	ما ذكره أبو العلي الغساني	6
24	ما ذكره أبو الحجاج الأعلم	7
25	ما جلبه علي البغدادي من أخبار	98
26	ما روي من الفهارس الجامعة لروايات الشيوخ	75

71	اتساع الرواية من جهة الإجازة	27
1177	///	المجموع

لم يذكر ابن خير معظم البيانات الببليوغرافية عن الكتب التي سجلها بل توسع في معنى الإجازة الذي أثر على هذه البيانات بالتقصير. لقد قدم ابن الخير أشرف العلوم وأفضلها لما حظي به في بيئته من اهتمام، فبدأ بذكر مصنفات علوم القرآن، فعلم الحديث فالسيرة النبوية فالفقه، وغيرها. وجمع في نسق واحد مختلف مصنفات النحو واللغة والأدب. وختم مروياته بذكر مجموعة واسعة من تأليف الرجال. وقد أتى فيه على أكثر الأسماء العلمية المعروفة آنذاك. حاول ابن الخير فرز المصنفات التي يجمعها علم واحد، كما فرز داخل العلم الواحد المصنفات التي تتقارب مواضيعها ويتشابه اختصاصها.

وهكذا صنف مروياته في علوم القرآن، فقدم بالدواوين الخاصة بالقراءات، ثم بناسخ القرآن ومنسوخه، ثم بكتب الأحكام فكتب التفسير، فغريب القرآن، فمعانيه وإعرابه ففضائل القرآن فقراء القرآن وحملته فالأمثال الكامنة في القرآن.

إن أهم ما يمكن أن يستفيده الباحث من أسانيد فهرسة ابن خير الإشبيلي، هو رصد التأثيرات الثقافية المتبادلة بين مختلف البيئات في المشرق والمغرب. فبواسطتها نستطيع أن نتبع رواة الأندلس في رحلاتهم المشرقية وهم يتصلون بهذا الشيخ أو ذاك أو يجلبون مصنفه أو رواياته. وبواسطتها نستطيع أن نتبع رواة المشرق ممن لهم رحلة إلى الأندلس لفرز تلامذتهم الذين حملوا عنهم، وتحديد العلوم والمصنفات التي جلبوها معهم. وبواسطتها أيضا نستطيع أن نترصد حركة المصنفات وهي في طريق تنقلها من المشرق مثلا إلى الغرب الإسلامي. ومن فوائد فهرسة ابن خير الإشبيلي ما يلي:

- التعريف بالرجال ممن ترد أسماؤهم بين رواة الأسانيد.
- تمييز الرجال، وهي عملية تدخل ضمن الاختصاص الثقافي الذي ينزع إليه ابن خير، فهو محدث راوية.
- التعريف بأصول المصنفات المجلوبة إلى الأندلس.
- تحديد بعض مواقف الأندلسيين من بعض المصنفات.
- التعريف بطبيعة التأليف الأدبي في بعض المصنفات، ولاسيما المادة الشعرية. والجدول التالي يوضح لنا الضبط البيبليوغرافي للإنتاج الفكري لكتب الفهارس والبرامج للكتب المنتقاة في الدراسة، وهي حسب التقادم في الوفيات:

جدول رقم (5): الإنتاج الفكري لكتب الفهارس والبرامج.

المؤلف	الكتاب	عدد الشيوخ المترجم لهم	عدد الكتب	عدد الفهارس	عدد المؤلفين
ابن عطية المحاربي	فهرسة ابن عطية	33	120	-	-
القاضي عياض	الغنية	98	211	33	-
ابن الخير الإشبيلي	فهرسة ما رواه عن شيوخه	-	1177	90	705
المجموع	//	131	1508	123	705

أظهرت لنا هذه الإحصائية مدى ولع الأندلسيين بتأليف البرامج والفهارس لأسباب مختلفة، كما ولعه بجمع الكتب، وتظهر المقارنة أن البرامج

والفهارس المشرقية تقوم على إحصاء الكتب وتعدادها، وبذلك تختلف عن كتب الأندلسيين من حيث الشكل والمحتوى، فهي لا تحصى فقط، وإنما تحصى وتعرف بما هو متداول، ومتجاوب بما يتطلبه المجتمع الأنديسي.

يعتبر هذا العمل حصيلة عملية جرد لتراث الأندلس المدون، ويدخل هذا العمل التوثيقي في سياق عمليات التوثيق والاتصال الوثائقي بالأندلس ما بين القرن الثاني والسادس الهجريين، لذلك فهو يقدم في صيغته قوائم المؤلفين والمؤلفات الأنديسية الذين شملهم الجرد، وهي طبعا قوائم مفتوحة، لأنه من البداية تجب الإشارة إلى أنه من الصعب الحصول على أرقام يقينية لعدد المؤلفين والمؤلفات لاعتماد عليها في الدراسة والتحليل، وذلك لعدم توافر البيانات الدقيقة حول هذا العنصر، وهذا يعبر في حد ذاته مقياسا لصعوبة المهمة.

تشكل كتب معاجم الشيوخ دواوين لأسماء أجيال حملت أمانة تبليغ المعارف والعلوم إلى تلاميذها، ويمكن أن نطلق على المعاجم والبرامج "مصطلح الببليوغرافيا التكوينية أو الببليوغرافيا الحيوية"⁽¹⁹⁾، وتوضح أهميتها في المجالات التالية:

❖ تمدنا بصورة صادقة عن الحركة العلمية والحياة الثقافية في العصر الذي دونت فيه تطورها.

❖ ترسم لنا ملامح النشاط الذي يقوم به الطلبة وطرق تلقيهم العلم وأسلوب التدريس وطرقه.

❖ المساعدة على معرفة الكتب المتداولة وإحصائها في مختلف الفنون والعلوم والنشاط الفكري في شتى الموضوعات.

❖ توضح لنا العلاقات وطرق الاتصال العلمي بين الطلاب وشيوخهم من جهة وبين علماء المشرق والأندلس من جهة أخرى.

❖ تمدنا بقائمة من البيانات الببليوغرافية المتصلة بحياة الكتب: العنوان، اسم المؤلف، اسم الشيخ الذي قرأ عليه، سنده، المكان.

وتبنى معاجم الشيوخ أساسا على التوثيق، فالتعريف بالشيوخ وإسناد المرويات يقصد منه الضبط وتوثيق مصادر العلم وطرقه، ويتجلى التوثيق من خلال الرواية، والقيمة التوثيقية للفهارس تظهر من جهة اعتماد الأسانيد، ومن جهة إثبات طرق التحمل عن الشيخ: قراءة وسماعا وإجازة ومناولة ومكاتبة، وإعلاما ووصية ووجادة⁽²⁰⁾.

تقدم لنا مقدمات كتب التراجم الأندلسية عامة، وكتب البرامج والفهارس خاصة، صورة واضحة لما كان عليه الحال عند المؤلفين الأندلسيين، وهي تمدنا بصورة واضحة للحركة العلمية والثقافية والفكرية في العصر الذي دونت فيه، وترسم لنا النشاط الإنساني، وتساعدنا في التعرف على الكتب المتداولة وسرعة تداولها، وأماكن تأليفها، وتحدد مكان العلم والتعلم. لذلك اعتبرت مكتبة التراجم ومكتبة برامج التعليم الأندلسيتين مكتبتين مهمتين للغاية.

الإحالات:

(1) عبد اللطيف، أحمد الشيخ، التوثيق لدى فقهاء المذهب المالكي بإفريقية والأندلس من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع عشر الهجري، الإمارات لعربية المتحدة: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1425هـ/2004م، ج 1، ص: 333.

(2) عامر إبراهيم، القنديلجي وآخرون، الكتب والمكتبات: المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، القاهرة، 2002، ص 92.

(3) نفسه، ص 94.

(4) عبد الله، الحجيلي، علم التوثيق الشرعي، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1424هـ/2003م، ص 43-42.

(5) حول هذا الموضوع راجع التراجم التالية:

* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (اعتناء وشرح: صلاح الدين الهواري)، ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1423هـ/2003م.

- أصبع بن عيسى بن أصبغ اليحصبي، كان عاقد الشروط، توفي سنة 418 هـ ت: 253.
- أحمد بن سعيد بن علي الأموي، كان له غاية بعقد الوثائق، توفي سنة 428 هـ/ت: 78.
- *أبو الوليد عبد الله بن محمد، ابن الفرضي، المصدر السابق. التراجم التالي:
- قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار، كان يلي وثائق الأمير، توفي 278 هـ/1049 م.
- إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم بن زياد، كان يعقد الشروط، توفي سنة 384 هـ ت: 221.
- (6) في القرن السادس الهجري يؤلف ابن الأبار (ت 658 هـ/1259 م)، كتاب التكملة لكتاب الصلة. وبعد ذلك يفعل ابن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ/1304 م)، الشيء نفسه مع كتاب ابن الأبار في الذيل والتكملة والموصول بعد الصلة. وهو موسوعة شاملة لعلماء الأندلس والمغرب حتى عصره، ولذا نجد فيه تكراراً لبعض التراجم التي وردت في كتب التراجم التي سبقتها. وقد تواصل تذييل كتب الصلة في بلاد المغرب بعد لجوء الجماعات الأندلسية إليها. أما ابن الزبير الغرناطي (ت 708 هـ/1308 م) فأكمل العمل بكتابه صلة الصلة. نشر أغلب أجزائه: القسم الأول نشره: محمد بنشرية، بيروت: دار الثقافة، دت، 2 ج. كما نشر إحسان عباس: القسم 4 و 5 و 6، بيروت: دار الثقافة: 1965، 1973، ثم نشر بنشرية القسم الثامن، ج 2، الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984. و أيضاً: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم: ابن الزبير: صلة الصلة، (تحقيق: ليفي بروفنسال)، الرباط: المكتبة الاقتصادية، ثم حققه ونشره: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، في 4 أقسام (1413 هـ-1993 م)، (1414-1416 هـ/1994-1995 م).
- (7) عمارة، علاوة، "الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، الرباط: جمعية المؤرخين المغاربة، العدد 32، خريف 1425 "2004، ص ص 331-369 ويعتبر الوزير لسان الدين بن الخطيب آخر من اهتم بفن الصلة، إذ أشار إلى ذلك في كتابه (أوصاف الناس في التواريخ والصلوات) وكتب صلة على صلة ابن بشكوال تحت عنوان (كتاب عوائد الصلة)، مع إدراج العلماء المغاربة. انظر: لسان الدين، ابن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلوات وتلها الزواجر والعظائم، (تحقيق: محمد كمال شبانة)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423 هـ/2002، ص 190. و أيضاً: يعتبر هذا الكتاب في قائمة الكتب المفقودة، وقد أشار إليه ابن الخطيب: 17 مرة في كتابه: الإحاطة في أخبار غرناطة (نشر: محمد عبد الله عنان)، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973.
- (8) حامد الشافعي، دياب، "فهارس وبرامج الشيوخ ودورها في الضبط البيبلوغرافي للإنتاج الفكري في الأندلس"، مجلة دراسات عربية في المكتبات والمعلومات، السنة الثانية، العدد 3، سبتمبر 1997، ص ص 72-72.
- (9) للمزيد عن منهج هذا الترتيب يرجى العودة إلى الدراسات التالية:
- جورج، عطية، الكتاب في العالم الإسلامي (ترجمة: عبد الستار الحلوجي)، سلسلة عالم المعرفة، عدد: 297، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، أكتوبر 2003، ص ص 176-198.
 - عبد الله المرباط، الترغي، فهارس علماء المغرب: منذ النشأة إلى غاية القرن الثاني عشرة للهجرة، ط 1، تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1420 هـ/1999، ص 703.
 - عبد الله المرباط، الترغي، "ابن الخطيب في كتابة الترجمة"، مجلة كلية الآداب، السنة الثانية، العدد 1، تطوان، 1408 هـ/1987 م، ص ص 209-233.
- (10) أنظر ترجمته في:
- ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 8، ص 364، (ت: 984).

- الضبي، المصدر السابق، ص 408، (ت:1280).
- (11) أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحاربي، فهرس ابن عطية (تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي)، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ص 139 و 189 وأيضاً: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاي، المعجم في أصحاب القاضي الأمام أبي علي الصديقي، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ/1987م، ص 261
- (12) العمدة، هاني، كتب البرامج والفهارس الأندلسية: دراسة وتحليل، ط1، نشر الجامعة الأردنية، 1993، ص ص 82-92.
- (13) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الغنية، ط1، (تحقيق: ماهر زهير جرار)، بيروت: دار الغرب الإسلامية، 1402 هـ/1982، ص 44.
- (14) الغنية، ص ص 228-230.
- (15) أبو بكر محمد بن خليفة الأموي، الإشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، ط3، منقحة، القاهرة: مكتبة الخانجي: 1417 هـ/1997م.
- (16) هاني، العمدة، المرجع السابق، ص 98.
- (17) عدد الكتب المذكورة: 1177 كتاباً، و 705 مؤلفاً.
- (18) بين الباحث الجزائري تواتي، بأن الكتاب فرض نفسه كوسيلة اتصال وثائقي في الحضارة العربية الإسلامية مع نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي راجع: Houari, TOUATI, Islam et voyage au moyen âge, Paris, Seuil, 2000, pp.259-297.
- (19) Ibid, p.75.
- (20) حول طرق تحمل العلم (الحديث)، أنظر: البلوي، أو جعفر أحمد بن علي الوادي آشي، ثبت البلوي (دراسة وتحقيق: عبد الله العمراني)، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403 هـ/1983م، ص ص 78-85.